عينه يقارن كوستلر بين المدارس العربية وطرق التدريس:

«دلّهم المختار على بناء متواضع طلي بكلس أبيض، موقعه من القرية في المنطقة المحرّمة عليهم (أي أصل المستعمرة)، تخرج منه جماعة من أطفال صغار حفاة. كانوا في أسمال ورؤوسهم السمراء محلوقة تشبه طابات البلياردو».

ثم تعرّض الى مناقشة قوامها يهود وبريطانيون وعرب، تدور حول التعليم. قال كابلان، موجهاً كلامه الى نيوتن: «اما عن مسألة المدرسة، فأنت تعرفها. اليهود يموّلون مدارسهم الخاصة وتمدّ الحكومة مدارس العرب. ان الجزء الأكبر من عائدات الضرائب يدفعها اليهود، بحيث اننا ندفع عن مدارسنا وعن مدارس العرب. وما دمنا نموّل تعليم العرب، فنحن نطلب، على الأقل، ان يقدّم بشكل ملائم».

أجاب نيوتن، وهو يحاول ان يتخذ لهجة ساخرة: «منذ متى شُغلت قلوبكم بثقافة العرب ؟».

«ـ منذ ان اكتشفت ان الطريقة الوحيدة التي نتفاهم بها معهم هي ان نعلمهم بشكل ملائم. اننا لن نصل الى اتفاق مع عشيرة من الجهلة المتعصبين. أود لو يوضع بعض الفهم في رؤوسهم، لعلنا نجد أمامنا بالغين نستطيع التفاوض معهم».

ترى أية تربية يريد كوستلر ان يمنحها للعرب ؟ تربية القبول ؟ القبول القدري لكل القهر والتعسف ؟

في الرواية، تقصّى حياة العرب نقطة نقطة كي يستخلص منها ما يمكن ان تروّجه الدعاية. مثلاً: التقى جوزيف بوليد الراعي الذي جاء لزيارة أربيه. وبعد ان سأله عن صحته، وصحة أمه، وأبيه، واخوته، وحصانهم، وبغلهم، وحمارهم، وأغنامهم، وكان الجواب في كل الأحوال: «الحمد لله»؛ وأكد على ان التقليد العربي يقضي بكل هذه الاسئلة وان يكون الجواب «الحمدلله»، حتى ولو كانت العائلة كلها مريضة، وقد نفق الحصان وأحد البغلين.

«قال وليد: لاحظت لصديقك ان اشجاركم الفتية هي جد جميلة.

«قال أربيه شارحاً: وليد يحب الاشجار.

«قال وليد: أرى ان الأشجار جميلة.

«سألت: لِمَ لا تزرعون منها في قريتكم ؟

« ـ ظن، قال وليد، وقد رفع رأسه دليل الانكار. هذا مستحيل.

« ـ لماذا

« ـ ظن، الأشجار لا تعيش أبداً.

« ـ ولماذا لا تعيش ؟

« ـ اذا اختصمت مع جارك يقطع لك أشجارك.

« ـ قلت: خسارة، أما من سبيل لمنعه ؟

« ـ ظن، لا. نحن لا نستطيع زراعة الشجر».

وتوقف، هنا، الحوار. والخطير في الامر ان أكثر من تعرّف عليهم في اوروبا يتصورون ان كل أشجار فلسطين هي يهودية، وان العربي هو صحراوي ضد الشجر، ويستشهدون بغزو بني هلال لتونس الخضراء؛ فقد أحرقوا فيها كل أشجارها.

ونعي وليد على صديقه ان اليهود ما ان ينتهوا من بناء حتى يبدأوا باقامة سواه. ما ان ينتهوا من شراء تراكتور حتى يشتروا آخر، دون ان يهتموا بلباس، او معاش، أو لذائذ أخرى. وأضاف قائلاً: «انتم